

رحلة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ل:خالد بن عيسى البلوي بين الأدبية واستجلاء المعرفة

Taj Al-Mufarraaq's Journey in Sweetening the Scholars of the East by Khalid bin Issa Al-Balawi between Literature and Knowledge Revelation

د. نجاة بلعباس*

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان،

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي

belabbasnadjet04@gmail.com

تاريخ النشر: 2026-06-09

تاريخ القبول: 2026-05-07

تاريخ الاستلام: 2025-12-31

ملخص:

استأنثر موضوع أدب الرحلة باهتمام وافر من لدن الباحثين؛ ومن هنا تبلور هدف هذا البحث وهو سير أغوار رحلة: "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" لخالد بن عيسى البلوي، وتبيان قيمة ما عرضه كاتبها عبرها من فوائد متنوعة، ومن هنا نطرح الإشكالية الآتية: ما مدى إسهام الرحالة البلوي في إثراء رصيد الكتابة الرحلية أدبياً ومعرفياً؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية اعتمدنا ثلّة من المصادر والمراجع المختلفة والغنيّة، فقسّمنا بحثنا إلى ثلاثة عناصر؛ تطرّقنا في أوّلها إلى تحديد مفاهيم أدب الرحلة وما يتعلّق بها، أمّا العنصر الثّاني فضمّ التعريف بالبلوي ورحلته، وانصرفنا في العنصر الثّالث إلى رصد براعة الرحالة في الصّيغة الأدبيّة لرحلته وكيفية عرضه لشتّى المعارف وحسن نسجها.

لنتوصّل إلى استخلاص جملة من التّنتاج أهمّها: الإحاطة برحلة البلوي ومنهجه القويم في تدوينها، وقدرته في عرض معارفها المتنوّعة التاريخيّة، والجغرافيّة، والعمرانيّة، ولاسيما العلميّة منها من خلال تقديم سلسلة من التراجم والسّير لعدد هائل من العلماء الأفاضل بأسلوب أدبي متميّز.

الكلمات المفتاحية: تاج المفرق؛ البلوي؛ الأدبية؛ المعرفة؛ علماء المشرق.

Abstract :

The field of travel literature has garnered significant interest among researchers, leading us to conduct a thorough and comprehensive study of the voyage documented by Al-Balawi in his book « Taj Al-Mufarraaq in the Delight of the Scholars of the East. » From this standpoint, we pose the question : To what extent has Al-Balawi contributed to enriching the treasury of travel writing ? Drawing upon a diverse range of rich scholarly sources , our research is structured around three fundamental elements : clarifying the concepts of travel literature, introducing Al-Balawi and his journey, and observing his skill in literary expression and knowledge presentation. In our quest for insights, we highlight , Al-Balawi's expedition and methodology, along with his adeptness in expressing a wide spectrum of historical, geographical, urban, and scientific knowledge through impactful portrayals of biographies and narratives of esteemed scholars in an eloquent and refined literary style.

KeyWords: Taj Al-Mufarraaq, Al-Balawi, literary, knowledge, scholars of the East.

*د. نجا بلعباس

المقدمة:

يعدّ أدب الرحلة من بين أعظم المباحث الأدبية؛ فهو يحفظ رصيد الأمم بل ويدفعها إلى التّلاقح مع مثيلاتها، فلولاها لما تشعّبت المعارف وتواصلت الثقافات المتنوّعة مع بعضها، حيث تصنّف كتب الرحلات ضمن أوثق المصادر وأجلّها، تبعاً لما تجود به من معلومات تاريخيّة، وجغرافيّة، واجتماعيّة، واقتصاديّة، وثقافيّة، وعلميّة، كما أنّ الرّحالة باختلاف مقاصدهم يشقّون طريقهم إلى مواطن عدّة، يتقصّون الأخبار ويُدوّنون المشاهدات، ويصفون الأحوال بدقّة، في قالب أدبي متميّز نظراً لما سطره كلّ واحد منهم فيما يخصّ معالجة سائر القضايا، وعرض شتّى المعارف بكلّ صدق وموضوعيّة.

ومّا لاشكّ فيه -وعلى غرار المشرق- فإنّ السّاحة الأدبية المغربيّة والأندلسيّة قد حفلت بنصيب معتبر من الرّحلات، سواء التي عقدها أصحابها في رحاب مدن المغرب الإسلامي والدّول المجاورة له، أو تلك التي انطلقوا فيها نحو المشرق والحجاز، فكانت سبباً رئيساً في تمتين أوصل التّواصل بين الأوطان، وبالحدّ من هؤلاء فقد وقع اختيارنا على أحد أبرز الرّحالة الأندلسيّين وهو: خالد بن عيسى البلوي في رحلته "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" وهي رحلة يغلب عليها الطّابع العلمي والتّعليمي، ومن هنا نطرح الإشكالية الآتية: ما مدى إسهام الرّحالة البلوي في إثراء رصيد الكتابة الرحلية أدبياً ومعرفياً؟ وتحت هذه الإشكالية تندرج مجموعة من التّساؤلات الفرعيّة أهمّها: ما ماهية أدب الرّحلة؟ ومن هو خالد بن عيسى البلوي؟ وهل استطاع أن يوفّق بين تحقيق أدبيّة رحلته، وإحاطته الشّاملة بكلّ المعارف المتنوّعة بها؟

وقد كان انطلاقنا من فرضيّات أنّ أدب الرّحلة -منذ القدم إلى يومنا- يعدّ جسراً يربط مشارق الأرض بمغاربها، ويحقّق التّواصل الثّقافي بين الشّعوب، وأنّ الرّحالة البلوي باعتباره عالماً فذاً من علماء الأندلس ذو ثقافة دينيّة وعلميّة، قد تمكّن فعلاً من الاستفادة من رحلته والإفادة بها في شتّى مجالات الحياة، لاسيّما في الجانبين العلمي والأدبي.

ولعلّ أهمّ إجراء سنعمده في التّأكّد من صحّة هذه الفرضيّات؛ سيتمكّن حول استنطاق المصادر والمراجع المتنوّعة، محاولين تحديد مفاهيم أدب الرّحلة وأهمّيّتها العظمى في تتبّع سيرة حياة هذا الرّحالة وأبرز مؤلّفاته، وقدرته في تصنيف رحلته المختارة للدراسة، وأهمّ ما تجود به من معارف متنوّعة وقيّمة.

كما اعتمدنا في بحثنا هذا على منهجيّة تجلّت في تقسيمه إلى ثلاثة عناصر أساسيّة، تطرّقنا في أوّلها إلى تحديد مفاهيم أدب الرّحلة وما يتعلّق بها، أمّا العنصر الثّاني فانصرفنا فيه إلى التعرّف بالرّحالة البلوي وبرحلته تاج

المفرق، في حين تناولنا الحديث في العنصر الثالث عن براعة الرحالة في الصياغة الأدبية لرحلته، وكيفية عرضه لشئى المعارف وحسن نسجها.

I. ماهية أدب الرحلة:

1. مفهوم الرحلة وأدبها:

تعدّ الرحلة سلوكاً بشرياً مميّزاً، حيث ينتقل الأفراد والجماعات من أمة إلى أخرى لعدة أسباب؛ قد تتكوّن من شغف البحث والتطلّع إلى آفاق جديدة، وقد تتمحور حول تحقيق أهداف حياتية دينية، أو ثقافية، اقتصادية، أو سياسية، إنّها مادة دسمة أمام القارئ والباحث تعجّ بألوان المعارف في شئى الميادين، فهي في اللغة ترتبط بفعل الحركة وهو الفعل المصاحب لحياة الإنسان منذ الأزل، فقد ورد في لسان العرب: "رحل الرجل: مركب البعير والناقة، وجمعه أرحلّ وأرحلّ، وارتحلّ البعير إذا ركبته، ورحل البعير يرحله رحلاً، فهو مرحول ورحيل، وارتحله جعل عليه الرحل، ورحله رحلة شدّ عليه أذاته" (ابن منظور، دت، صفحة 1608) ومن هنا يتوضّح بأنّ الرحلة وكثرة الانتقال كانت الفعل الدائم الذي يمارسه العربي على مدار السّنة، وأداته لذلك كانت البعير والجياد لتجسيد فعل الركوب ثمّ الحركة والانتقال.

والرحلة كذلك مأخوذة من مادة (ر ح ل) نقول: "ارتحل البعير: سار، ومضى القوم عن المكان: انتقلوا، كترحلوا والاسم: الرحلة بالضمّ والكسر، أو بالكسر: الارتحال، وبالضمّ الوجه الذي تقصده، والسفرة الواحدة" (الفيروزآبادي، 2005، صفحة 1005) فجعل مشتقات هذه المادة "رحل" توحى بالانتقال والسفر من مكان إلى آخر، عبر راحلة معيّنة أو بدونها، وبذل الشّخص الجهد والوقت للوصول إلى الهدف المسطرّ من رحلته.

أمّا في اصطلاح المتخصّصين فقد وردت مفاهيم كثيرة للرحلة؛ يوردها كلّ واحد منهم حسب فهمه أو توجّهه، ففي دائرة المعارف عُرفت الرحلة بأنّها انتقال الفرد أو الجماعة أو الأمة من رقعة جغرافية إلى أخرى لدوافع مختلفة وأسباب متعدّدة، لاضطهاد وقع عليهم أو جذب بلادهم وضيقتها، أو بسبب حروب أتلقت أرزاقهم ومعيشتهم، وهذا شأن الأمم منذ قديم الزّمان (البستاني، دت، صفحة 564) فالإنسان مجبول على حبّ التنقل والرغبة في استكشاف أماكن مغايرة وجديدة عليه، فضلاً عن أنّ حركته الدّائمة هذه ستكون نتيجة حتمية لما يكابده من ظروف معيشية، تضيق عليه الاستقرار بمكان معيّن، أو مقاصد أخرى سامية تدفعه لمخالطة أقوام آخرين والتعرّف على ثقافتهم للتفاعل معهم.

وإذا كانت جلّ التعاريف المخصّصة للرحلة قد اهتمّت أصحابها بتغليب النّظرة التّاريخية والجغرافية، واعتمادها على عاملي الزّمان والمكان في التنقل، فإنّ هناك تعاريفاً أخرى من نوع خاصّ شأن صاحب الإحياء الذي دأب

يشرح مفهوم الرحلة بأنّها: نوع حركة ومخالطة ووسيلة للخلاص من مهروب عنه أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه، وهذا ما يُطلق عليه مصطلح السفر، بيد أنّ السفر نوعان: أحدهما يكون بظاهر البدن عن الوطن إلى الصحاري والفلوات، والآخر بسير القلب عن أسفل السافلين أي إلى ملكوت السماوات والأرض (الغزالي، دت، صفحة 181) فلا رحلة لبني البشر دون حركة ومخالطة للأقوام مهما طالّت مدّتها أو قصرت، وهي إمّا مفرّ من خطر أو توجّه نحو مقصد محدّد ذو قيمة رفيعة في نفس الرحّالة، ويضيف الغزالي إلى شرحه مظهراً أصيلاً من مظاهر الرحلة؛ وهو الجانب الروحي عبر سفر الشخص باطنياً وروحياً إلى مكان مقصود غير رحلة الجسد، وهذا ما يتوفّر لدى الأولياء والمتصوّفة، ويعدّ من أجلّ أنواع السفر لديهم.

وفي السياق ذاته يعدّ أدب الرحلة واحداً من الأجناس الأدبية التي دأب كتّابها يجوبون عديد الأوطان، ويتواصلون مع مختلف الشعوب، فيدوّنون مشاهداتهم كلّها بدقة، بأسلوب أدبي وفني شيق تتداخل فيه الكثير من المعارف، وتتمازج فيه الكثير من العلوم والفنون، فهو شكل نصّي مفتوح منبثق من عدّة مكونات ثقافية، وسياسية، واجتماعية متداخلة تتلافح فيما بينها لتكوّن حقولاً تعبيرية شتى، في حلّة فنيّة بميّة لها طابعها المعرفي الممتد والمميّز (روباش، 2015، صفحة 22) فللرحالة هدف نبيل يؤدّ تحقيقه وهو؛ وصول نصّه إلى أكبر عدد من القراء وتمكّنهم من فهمه والإحاطة بجميع جوانب الرحلة، بالإضافة إلى طبعه ببصمته المميّزة، وانطباعاته الخاصّة عن المكان المقصود وشعبه، عبر تسجيله كلّ المشاهد التي من شأنها التأثير في المتلقّي وتنقيفه.

ولعلّ أدب الرحلة واحد من الآداب التي تتشاكل مع حقول كثيرة أبرزها التاريخ، والجغرافيا، والأنثروبولوجيا، والسير، وسائر أشكال السرديات وغيرها، وذلك يرجع لطبيعته المنفتحة والمرنة في احتواء مختلف الأجناس والمعارف، إذ تتوفّر فيه فائدة عظيمة تخدم المؤرّخ والجغرافي، وعلماء الاقتصاد والاجتماع، ومؤرّخي الآداب والأساطير، بل يشكّل منبعاً ثرياً لشتّى العلوم، وهي مجتمعة تمثّل سجلاً حقيقياً للكثير من مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور (حسين، 1983، صفحة 06) فالقارئ للرحلة لن يستفيد منها أدبياً فقط بل سيجني معارفاً متنوّعة أيضاً، أبرزها ما يتعلّق بجغرافيّة المكان وتضاريسه وبيئته، فضلاً عن تاريخه وأبرز الأحداث الواقعة في رحابه، كما يمكنه التعرّف على سير العظماء وأبرز الشخصيات هناك، والاستفادة من تجاربهم وخبراتهم، وفي ذلك صلة مباشرة بأحوال المجتمع وعاداته وتقاليده، وطباع أهله وتكوينهم الثقافي والفكري، دون نسيان التطرّق إلى أهمّ مواردهم الاقتصادية، والتجارية، والمالية عموماً التي تكفل لهم نوعية المعيشة، وهذا كلّ يصوغه الرحّالة بلغته البليغة وأسلوبه الشيق الذي يرسم شعراً ونثراً عبر ثنايا رحلته.

2. أنواع الرحلات ودوافعها:

هناك دوافع كثيرة تحثّ الرّحالة للقيام برحلاتهم إلى الوجهات المختلفة، وهي تتعلّق بطبيعة الشخصيات أو تغيّرات الأزمنة والأمكنة، ذاتية أو تكليفية، هدفها تحقيق غايات معيّنة، لذلك سنميّز بين وجود العديد من أنواع الرّحلات تبعا لتغيّز دوافعها منها:

أ- الرّحلات الدّينية: وهي من أجلّ الأنواع لدى المسلمين لعلاقتها بالعبادات، فينطلق الرّحالة لأداء فريضة الحج وزيارة البقاع المقدّسة، مندفعين من كلّ فجّ عميق وعلى كلّ ضامر إلى الانتقال، فالحجّ كان ولا يزال رحلة يتشوّق إلى أدائها كافّة النّاس باختلاف مستوياتهم من علماء وفقهاء وعامّة (فهيم، 1978، صفحة 80) فهم بذلك قد قاموا بتلبية نداء المولى عزّ وجلّ، وعكفوا على التوبة بين يديه في بيته الحرام، والعزم على البقاء في جادة الصواب طمعا في مغفرته ورحمته، فترسم في أذهانهم كلّ المشاهدات هناك من أماكن وأشخاص وطبائع وعلماء وصلّاح، ويعمدون إلى نقلها إلى غيرهم وتحييهم في زيارتها، وكلّهم رغبة وشوق لمعاودة هذه الرحلة مرّة أخرى.

ب- الرّحلات العلميّة: وهي كذلك من أعظم دوافع الرّحلات؛ فلطالما ولع الرّحالة المسلمون بطلب العلم وحبّ الاستزادة منه دينياً كان أو دنيوياً، فيقصّدون الأوطان التي تعجّ بالعلماء والمؤسّسات العلميّة، طمعا في التّحصيل والإجازة والتثقيف، وذلك لأنّهم كانوا يعدّون الرّحلة في سبيل العلم من شروط كمال الدّين، وأنّ لقاء الرّجال من شروط الوجوب، فتجدهم يقطعون البراري والصّحاري والقفار ويلقون في سبيله المعاطب والأخطار (الإبراهيمي، دت، صفحة 216) ولأنّ ديننا مجّد العلماء ورفع قدرهم؛ كان النّاس يتنافسون ويبدّلون الغالي والتّفيس، ويصبرون على المحن، ومشاقّ السّفر من أجلّ تحصيل العلم ونشره، حتّى كادت الرّحلة العلميّة أن تصبح مقياسا للحكم على مستوى العلماء، وغالبا ما كان الرّحالة يزاجون بين دوافع الرّحلة الدّينية والعلميّة أو التعليميّة، باعتبار أنّ سفرهم لأداء مناسك الحجّ سيمكّنهم هناك من لقاء العلماء والفقهاء، وعقد المجالس العلميّة معهم ومناقشتهم، ولما لا شرف نيل الإجازة منهم.

ج- الرّحلات السّياسيّة والرّسميّة: وهي الرّحلات التي تنشأ من دوافع خاصّة بالبلد وأنظمتها الدّاخلية والخارجية، كالسفارات والوفود التي يتمّ تبادلها بين الملوك تعزيزا للعلاقات الوديّة بينهم، أو لحلّ النزاعات السّياسيّة، فقد كانت السّفارات لا تنقطع بين سائر الدّول العربيّة وما يجاورها من بلاد العجم، لعدّة أغراض إمّا نتاجاً للعلاقات السّياسيّة بينها أو لمقاصد الصّلح (الشوابكة، 2001، صفحة 40) وسواء كانت هذه الرّحلات سفاريّة أو إداريّة فإنّها رحلات تكليفية رسميّة؛ لها أهداف مسطرّة مسبقاً، لا تسند إلى أشخاص عاديّين وإنّما لمن يملك بصيرة وعلمًا وحنكة، فيعود منها بكتابات ثريّة تحمل معلومات مهمّة عن البلد المقصود في شتّى المجالات.

د-رحلات متنوعة: وتتمثل في تلك الرحلات التي حدثت بفعل دوافع متعدّدة قد تتمحور حول الشؤون الاقتصادية للبلد، كالسفر بحثاً عن العمل، أو تأمين الكسب الجيد أو درءً للغلاء وابتغاءً لليسر والوفرة، ومنها كذلك تلك الرحلات التجارية داخل الأقاليم وخارجها، ينظمها التجار لتبادل السلع والترويج لما هو محلي أو عقد الصفقات التجارية، وفتح الأسواق الجديدة، مثلما فعل الرحالة المسلمون الذين وصلوا إلى الصين والهند وسواحل إفريقيا الشرقية والغربية (ضيف، دت، صفحة 09) فهؤلاء الرحالة تمكّنوا من المساهمة في رفع اقتصاد بلدانهم، كما أنّهم نجحوا في إيصال رسالة الإسلام إلى أبعد الأصقاع عبر أخلاقهم القويمة، وأبدعوا في نقل مشاهداتهم لما صادفوه هناك.

وهناك رحلات أخرى قد ترتبط بصحة الرحالة النفسية والجسدية؛ كسفره لتلقي العلاج خارج وطنه أو هروبا من الأوبئة والأمراض، ضف إلى ذلك تلك الرحلات السياحية والتثقيفية التي يُبتغى منها الترويج عن النفس، وإرضاء الفضول في اكتشاف أماكن جديدة والاختلاط بالشعوب والوقوف على طبائعهم، ومضاعفة الرصيد المعرفي فيما يتعلّق بتاريخ تلك البلدان وآثارها وآدابها، فمهما تعدّدت الدوافع والمقاصد فإنّها مجتمعة تشكّل سلوكاً إنسانياً وحضارياً يعود بالنفع على الأفراد والجماعات، لأنّ الرحالة بعد الرحلة ليس هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها (قنديل، 2002، الصفحات 19 - 20) فتبقى هذه الرحلات عاملاً مهماً في التواصل الثقافي والحضاري للأمم، بما تكتنزه من زاد معرفي هائل ومتشعّب، يجعل القارئ يعيش في رحاب الرحلة وكأنّه قد سافر إلى البلاد المقصودة حقاً.

3. أهمية الرحلة وأدبها:

مما لا شكّ فيه أنّ الرحلة تكتنز فوائداً عظيمة تعود بالنفع على الفرد والجماعة في شتى ميادين الحياة، فبفضلها يتحصّل القارئ للرحلة على الكثير من المعارف التاريخية للبلد المقصود، ويتعرّف على جغرافيته، وعادات أهله وطرق عيشهم وعقائدهم وعمرانهم، بل الرحالة وهو يطوي الأرض أثناء سفره يكتب عن مظاهر مختلفة في الحياة، سواء شاهدها أو سمع عنها أو نقلها من غيره، كما أنّ الرحّالين يتميّزون فيما بينهم في دقّة ملاحظاتهم، ودرجة اهتمامهم ونوعه، وفي تنوّع فهمهم للأمور حسب الظروف المتغيّرة التي يمرّون بها (حسين، 1983، صفحة 06) فيعمد كلّ واحد منهم إلى مضاعفة الجهد وإتقان العمل، رغبة في مشاركة مشاهداته مع أبناء جلدته والقراء عموماً، خاصّة ما تعلّق بالمظاهر الإيجابية التي يحسن التأثير والاقتداء بها، ما من شأنه تعزيز الانتماء بالذات وتسهيل الاندماج مع الأمم الأخرى من خلال الثقافة.

والمطالع لأدب الرحلة العربي سيقف مشدوها أمام الكمّ الهائل من الرحالة عبر ربوع المشرق والمغرب والأندلس الذين تركوا لنا إرثاً أدبياً هائلاً، يكشف غنى تلك المصنّفات بالمعارف الثمينة عن مختلف الشعوب، بأساليب أدبية وفنية وصيغ بلاغية رائقة، كما تتجلى القيمة الأدبية لهذا الأدب كذلك فيما تجود به الرحلة من نصوص نثرية، وأبيات شعرية، وألفاظ رشيقة، وأوصاف دقيقة تجعل النصّ الرحلي يرتقي إلى مصاف النصوص الفنية (ضيف، دت، صفحة 06) فأهمية الرحلة لا تكمن فقط فيما تحمله من معارف مفيدة؛ بل أيضاً في طريقة عرضها ووصفها وتقديمها للقارئ في أبهى حلة.

II. التعريف بالبلوي ورحلته:

1. التعريف بخالد بن عيسى البلوي:

هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي القتوري ولُقّب بأبي البقاء، ذكره الحضرمي بأنّه الفقيه الأجلّ، القاضي العدل، الحاج المتخلّق، الحبيب الأديب المتفتّن، العالم الفاضل، اختلف المؤرخون حول تاريخ مولده، فرجّحه محقق رحلته بحوالي سنة 713هـ، وهو صاحب الرحلة رحل ولقي أعلاماً وأخذ عنهم، أمّا وفاته فقد جعلها بعض المؤرخين سنة 765هـ ويظهر أنّ ذلك غير صحيح -بحسب عدّة روايات- (البلوي، دت، صفحة 18، 25، 26) فهذا العالم نشأ بأسرة علمية وترى تربية دينية، ووفقاً للصفّات التي خصّ بها عدّد من أبرز رحالة الأندلس، من المحبّين للأدب المصاحبين للعلماء والأدباء في مختلف البلدان الإسلامية مشرقها ومغربها.

تلقى البلوي علومه الأولى من القرآن ومبادئ اللّغة العربية بأسرته الصّالحة قبل أن يرتحل إلى غرناطة وفاس وتلمسان، وبعد ذلك إلى الشّام والحجاز، حين درس على أيدي الكثير من العلماء هناك من أمثال: أبي عبد الله بن عبد السلام، ومحمد بن محمد بن عاصم القيسي، وأبي عبد الرحمن الجزولي، وابنا موسى بن الإمام، وعيسى بن مخلوف المغيلي وغيرهم كثير (البلوي، دت، الصفحات 29-34) فهؤلاء العلماء وغيرهم كانوا بمثابة المنهل الذي نهل منه البلوي علومه المختلفة ونال إجازاته القيّمة، فحظي عندهم بالمكانة العالية، ليتبوّء بعد عودته إلى موطنه منصب القضاء بقتورية فبرشانة أسوة بوالده الذي شغل هذا المنصب قبلاً، ومن جملة العلماء الذين ترجموا له ونقدوه ومدحوه كذلك نجد لسان الدّين بن الخطيب وقد وصفه في مؤلّفه قائلاً: "راح المشرق وعشا إلى نوره المشرق، مع اخضرار العود وسواد المفرق وغفلة من الزمان المطرق، فحجّ وزار وطرح الأوزار واستسقى السّحب الغزار، ودوّن رحلته فأحسن وأطرف، وحلّى وعرف، وقفل مغرباً بتشريقه وكتب عن بعض الملوك الكبار بطريقه، ثمّ ارتسم في حزب القضاء وفريقه، وأدبه مشتمل على نثر ونظم ولحم وعظم، ولنثره على نظمه شفوف، وإلى اللّحاق بذی الإجابة خفوف..." (بن الخطيب، 2009، صفحة 156، 157) وفضلاً عن هذه الأوصاف التي خصّه بها كبار

العلماء والأدباء، فإنّ البلوي شغل منصب الكتابة كذلك نظرا لما يملكه من موهبة الكتابة والتعليم، ولكنّ كلّ هذه المهام قبلا وبعدا لم تُثنه عن القيام برحلاته كونه كان شغوبا بالسّفر والترحال.

ومن جملة مؤلّفات البلوي نورد: (البلوي، دت، صفحة 36)

- الرّحلة الحجازية المسماة "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" وهي مكوّنة من جزأين.
- برنامج روايته.
- ديوان شعر ضمنه قصائده ومقطوعاته.
- تخريج في حديث الرّحمة.
- كتاب عن أسانيد لثلاثيات البخاري.
- مجموعة مختارة من أشعار معاصريه.

2. رحلته ومنهجها:

لقد شغف البلوي بالسّفر والترحال فكانت له ثلاث رحلات قام بها في حياته؛ أوّلها رحلته من الأندلس إلى فاس ودافعه كان للدراسة، أمّا رحلته الثّانية فكانت تجاه المشرق قصد أداء فريضة الحج وما يحذوها من دوافع علمية أيضا، ثمّ رحلته الثّالثة إلى شرق الأندلس وكان هدفه فيها الاستزادة من العلم بلقاء العلماء والأخذ منهم، فعن رحلته الأولى ذكر البلوي في متن الرّحلة الحجازية غير ما مرّة أنّه درس بالأندلس وبغرب العدو ويعني الأندلسيون بالعدوة بلاد المغرب، كما ذكر بعض تفاصيل هذه الرّحلة، ولا شك أنّها مشتملة على تراجم العلماء الذين أخذ عنهم بفاس، في حين ضمّت رحلته الثّالثة تنقلاته في شرق الأندلس وفي غرناطة والمرية وبلش وغيرها (البلوي، دت، صفحة 45) أمّا رحلته الثّانية -وهي موضوع بحثنا- وتعدّ الرّحلة المكتوبة التي وصلت إلى أيدي الباحثين، يطلق عليها الرّحلة الحجازية باعتبار البلوي قد قام بها بدافع أداء فريضة الحج إلى الحجاز وتُعرف باسم: "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، وأشرف على تحقيقها المؤرّخ المغربي "الحسن بن محمد السائح".

انبرى البلوي في رحلته يصف البلدان التي مرّ بها وأقام فيها انطلاقا من بلدته قنورية بالأندلس إلى هنين، وتلمسان، والجزائر، وبجاية، وقسنطينة، فالعنا بوبنة، وصولا إلى تونس ثمّ معاودة الانطلاق منها مجدّدا إلى قوسرة ومالطة وقبرص والإسكندرية، فالقاهرة، متوجّها إلى غزّة ثمّ بيت المقدس، كما مرّ بالكرك وتبوك فالعلا ووادي القرى ومنها إلى المدينة المنوّرة، فرباغ فخليص فبطن متوجّها إلى مكّة (البلوي، دت، الصفحات 46-53) فلطالما شكّل حجّ بيت الله دافعا جليلا أدّى بالكثير من الرّحالة والعلماء إلى اتّخاذه سببا رئيسا للقيام برحلاتهم المتنوّعة مقاصدها،

والبُلوي واحد من هؤلاء، فقد عزم على بدأ رحلته نحو مكّة يحذوه هدف أداء الفريضة والتقاء العلماء والأخذ منهم هناك، مسجلاً في رحلته كلّ محطة مرّ أو نزل بها من البلدان المختلفة براً وبحراً.

احتوت هذه الرحلة على فوائد جمة في عدّة مجالات لما بها من معلومات تاريخية، واجتماعية، وجغرافية، وعمرانية، وفنية، وعلمية وأدبية للأقاليم التي حلّ بها الرّحالة، ودقّق في وصفها بكلّ موضوعية وحيوية، ليقلّل راجعا إلى وطنه عبر وادي العقيق بالمدينة المنورة فالينبوع، فعقبة إيليه، ثمّ واصل المسير إلى القدس والرملة وعسقلان ومصر فالإسكندرية، ماراً بتونس وباجة والعتاب وقسنطينة وبجاية وجبل الزاب والجزائر وتلمسان وهنين ومنها ركب إلى قرقورة والمرية ومنها إلى قنورية (البُلوي، دت، صفحة 53) فيرجّح المؤرّخون بأنّ رحلة البُلوي قد دامت قرابة خمس سنوات، وبالرّغم من كلّ المحن والشّدائد التي اعترضته فإنّه جمع فيها بين نيل أجر الحجّ وملاقة أهل العلم، ومتعة السفر، ليعكف بعد استقراره إلى مراجعة ما كتبه من الرحلة ويتمّ أجزاءها، ليؤوّل أمر إخراجها ونسخها إلى حفيده خالد بن أحمد بن خالد بن بعده.

وبما أنّ لكلّ كاتب منهجه الخاصّ في تصنيف كتابه الذي يتشابه إلى حدّ ما مع سائر الكتاب ويختلف كذلك في عدد من النّقاط بما يترك مجالا للتّفرد والتميّز، فإنّ البُلوي اعتمد منهجا معيّنا في تدوين رحلته فقيده في بدايتها قائلا: "هذا تقييد أطلعه عون من الله وتأيد قصدت به ضبط موارد الرحلة الحجازية، وذكر معاهد الوجهة المشرقية، جعلها الله تعالى في ذاته وابتغاء مرضاته بمّنه وكرمه، وألمت مع ذلك بذكر بعض الشيوخ من العلماء الفضلاء الذين يطعون ذيول البلاغة، ويجرون فضول البراعة... وألمت بذكر نبذ من فوائدهم، واختيار طرف من أناشيدهم، ومزجتها بما جرت إليه العبارة وحسنت فيه الإشارة من قطع الشّعر المناسبة قطع النور... ولمّا بوّت ما ألّفت ورصعت ما جمعت وشعشعت ما وضعت، فجاء كما تراه حسن الزي... مسبوك الحلية والتبر... دعوت الله تعالى أن يوفّقني فيه وأن ينفع به كلّ من يلتمس النّفع به في المطالعة أو الكتابة" (البُلوي، دت، صفحة 142، 143) حيث عمد البُلوي إلى منهج يقسم به رحلته إلى أقسام متباينة.

تمثّل هذا المنهج في قسم سرد فيه كلّ مشاهداته وموارد رحلته من عمران وتاريخ وجغرافيا المسالك، حينما وصف شخصا المدن والقرى والمعالم وما بها من تضاريس وآثار ومساجد ومؤسسات علمية عامرة، مثل مكّة والمدينة، فضلا عن الأحوال السياسية والاجتماعية للبلدان، وما دون ذلك من أوصاف دقيقة تتوقّر في سائر الرّحلات، وقسم ثانٍ خصّصه للعلماء والشيوخ والأدباء الذين لقيهم وما جادوا به من بديع نثرهم ونظمهم، عبر خلق العلم ومجالس البلغاء، فلم ييخل علينا البُلوي بسرد ووصف شامل لمناسك الحجّ، وما لقيه هناك من شيوخ نهل

من علومهم ونال عنهم الإجازات في كل مكان حلّ به، وقسم آخر لما سبق له وسمع من أحاديث العلماء والأدباء وأشعارهم فرواها وانتقى منها أجودها.

فأكثر ما يميّز البلوي عن غيره هو موضوعيته ودقّته في الوصف، وثقافته الواسعة التي أهّلتها للاطلاع على الكثير من المعلومات والكتب التي تفيده في رحلته قبل بدءها، دون أن ننسى أمانته العلميّة في نقل المعارف وتسجيلها وذلك إبان سفره تفاديا لنسيانها، فغدت رحلته هذه نموذجاً أدبياً يُحتذى به لما بها من أسلوب بديع وتعبير بليغ، بل مكتملة لما جادت به كتب التاريخ وخاصة السّير والتراجم لأهمّ العلماء، وبالرّغم من أنّ الرّحالة قد تعرّض لبعض التّقد من لدن النّقّاد والكتّاب لاقتباسه بعض التعابير من سابقه -مثلما وجد آنذاك لدى كتّاب المشرق- فإنّ كتابته الرّحلية وبالذّات في رحلته الحجازية، قد استرعت انتباه كتّاب آخرين من أمثال المقرّي الذي قال فيها: "مشحونة بالفرائد والفوائد وفيها من الأدب والعلوم ما لا يتجاوزه الرّائد" (المقرّي، دت، صفحة 532) وهي إشادة في صالح البلوي ورحلته الأدبية التي نقلت شتّى المظاهر الحضارية والثقافية للبلدان، وعدّدت أهل العلم، فتداولتها الأيدي من كلّ مكان، وسارت في المضمار ذاته لسائر الرحلات المغربية والأندلسية.

III. رحلة تاج المفرق بين الأدبي والمعرفي:

1. الأدبيّة في الرّحلة:

من المعلوم أنّ الرّحلة هي انتقال الفرد أو الجماعة من مكان إلى مكان آخر؛ بغية تحقيق مقصد معيّن وسواء كانت واقعيّة أو روحيّة فإنّها وبفضل الرّحالة تنتقل من صيغة المشاهدة العينية والمعيشة عن كثب إلى صيغة الكتابة الأدبية، فهي واحدة من الأجناس الأدبية التي يعمد صاحبها إلى تدوينها في شكل أدبيّ نشري، أو نثر يتخلّله بعض التّظم، بأسلوب فنيّ جماليّ يتمايز من كاتب إلى آخر، يقوم بها رّحال متميّز موازنا بين الذّات والموضوع من خلال مضمون وشكل مرّنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه (الموافي، 1995، صفحة 27) فالرّحلة لا تقاس بمدى ما تحمله في طيّاتها من موادّ ومعارف فحسب، وإنّما بما يبيّنه فيها صاحبها من حيوية وتنوع في المشاهدات، وتبيان الحقائق والأخبار بالانفتاح على الثقافات، وعن الطريقة التي يرسّخ بها المعلومات، من خلال دقّة وصفه وموسوعية سرده، ومزاوجته أحيانا بين الواقع والتخييل، ما من شأنه إثارة الفضول وتشويق القارئ لمواصلة مطالعة الرّحلة.

وبما أنّ الرّحلة تتعرّض تقريبا لكلّ مناحي الحياة؛ فإنّها بمثابة الفرصة لمعرفة سائر الأقوام واكتشاف ما خفي من أحوالهم، والسبيل إلى ذلك يكون من خلال عرض الرّحالة لما جمع من معارف بواسطة جملة من فنون الأدب التي بدورها ترفع من قيمة الرّحلة أدبيا وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنيّ، فمثلا تشترك الرّحلة مع النّصوص السردية في

تنوعيهما للأسلوب، فتارة هو سرد قصصي، وتارة حوار وأحيانا يتعدى إلى الوصف وغيره (قنديل، 2002، صفحة 23، 24) وهذا ما يضيف على الرحلة متعة فنية وتشويقا، يفتح آفاق التخيل والتنبؤ أمام القارئ واستثمار التجارب الماضية للاستفادة منها في الوقت الراهن.

ولا ريب أنّ رحلة البلوي قد صُنّفت من أرقى الرحلات الأدبية في الضفة المغربية والأندلسية، واستوفت كلّ الشّروط اللازمة آنذاك، فعن العنوان: "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" فإنّه يشكّل دلالة كثيفة عن موضوع الرحلة ومفتاحا للوصول إلى مضمونها، فعنونة كلّ شكل تعبري تكتنز مقصدية المؤلّف ومدى إدراكه للكتابة التي صنّفها، بل هي نداء للقارئ ومرشد له في الوقت ذاته (حليفي، 2006، صفحة 171، 172) فهو أوّل عتبة تشير إلى نوع المؤلّف والفكرة التي تتمحور داخله، وفي رحلة البلوي نستطيع تحديد هويّة النصّ عبر الكلمات التي انتقاها الكاتب ورفضها، فتشكّلت مجتمعة لتدلّ على محاولته وصف رحلة أدبيّة وعلمية قام بها في طريقه للحجّ، فتكوّن العنوان من جمل مسجوعة ذات جرس موسيقي تصاحبها إشارة إلى التميّز والتفوّق الذي يصل إليه العلماء، في مكان مميّز وهو أرض مكّة، فهي رحلة استكشافية بصيغة علميّة تجمع الفائدة المعرفية المتنوّعة بالتوثيق والإخبار عن علماء المغرب، ولاسيما من المشرق الذين صحبهم البلوي ونال عنهم الإجازات، فوثّق كلّ هذه المعارف بأسلوب بليغ ومميّز يجمع بين الشّعور والنثر وتدوين العلم، وهي الخاصية المميّزة التي حظي بها أهل العلم والأدب قديما، فقام كاتبها بتدوينها بأسلوب نثري محكم وعبارات بليغة، متعرّضا لأبرز القضايا الفكرية والعلمية المهمّة في زمنه، حينما ترجم لعدد هائل من العلماء والشيوخ وأخذ عنهم، بل ودبّج رحلته بالدواوين الشعرية كذلك، ما عزّز من قيمتها الأدبيّة والفنيّة أكثر.

انطلق البلوي في سرد أحداث رحلته متضمّنا أبرز أداة وهي الوصف؛ مثل وصفه للأماكن المقدّسة في مكّة المكرمة وما تعجّ به من زخارف وآثار، فضلا عن تقديره للمسافات فيذكر في متن الرحلة أنّ "جميع سعة الرّوضة المباركة من جميع جهاتها مائة شبر واثنان وسبعون شبرا، مؤرّزة بالرّخام البديع النحت، الرائق النّعت وينتهي منها إلى نحو الثّلاث وإلى حيّز الرّخام تنتهي الأستار من الديباج، وهي لازوردية اللّون مخمّمة بخواتم بيض مثمّنة مربّعة" (البلوي، دت، صفحة 286) حيث أبدع الرّحالة في وصف ما شاهده من منظر بديع، فانطلق في تقدير المسافات فيه وتجسيمه بأشكاله الهندسية التي طليت بألوان زاهية تجذب الأنظار وتبهرها.

ومن جملة ما استرعى اهتمام البلوي كذلك شبايبك الرّوضة المتّصلة بسقف المسجد، وأبوابها التي حملت كتابات ظاهرة دوّن في نصّها: "بسم الله الرحمن الرحيم خدم بهذه الدار بزينة للرحم الشّريف مولانا السّلطان الملك الظّاهر ركن الدّنيا والدّين أبي الفتح بيب الصّالح، قسيم أمير المؤمنين في سنة ثمان وستّين وستمائة" (البلوي، دت،

صفحة 286) فكانت هذه النقوش الكتابية فريدة من نوعها ما جعله ينيهر بها ويصف براعتها، زيادة على ذلك تلك الآثار والعمائر في عدّة بلدان، مثل الجزائر والإسكندرية التي خصّها بأوصافه في صفحات عديدة من الرحلة والتي تنمّ عن ذوقه وبراعته، دون أن ننسى تعرّضه أثناء وصف المدن إلى سرد ما اتّصف به النّاس من طبائع وأخلاق حين يقول: "وتفرّقنا في سكك المدينة أجمعين فرأيت محيا صبيحا وتربا مليحا، ومسجدا عتيقا وبناءً أنيقا وأناسا قد سلكوا إلى الحسن والإحسان طريقا" (البلوي، دت، صفحة 152) حيث وصف طباع وأخلاق أهل الجزائر بكلّ صدق وموضوعية، وهم أناس كرماء مرّ بهم فأكرموا مثواه وكان وصفه مختصرا مثل سائر الرحالة قبله.

وبما أنّ البلوي كان محبّا للعلم وأهله وشغوفًا برواية الشّعْر عن الأدباء واستجازة العلماء؛ فقد أولاهم نصيبا معتبرا من رحلته حينما اتّصل بهم في المغرب والمشرق، فغالبا ما كان يذكرهم بأسمائهم وألقابهم ونعوتهم وتأليفهم مع تاريخ ولادتهم، ثمّ يأخذ عنهم السند وينتسخ كتبهم (البلوي، دت، صفحة 58، 59) وهنا نجده قد خاض ميدان السّير والتراجم الأدبية فتعرّض إلى اثنين وثلاثين ترجمة لعدّة علماء، مفصّلا الحديث عن حياتهم وعلومهم وآدابهم، مستفيدا منها ومفيدا القارئ من خلاصة علمهم، والجدير بالذكر أنّه كلّما يصف مدينة إلّا ويذكر كبار الشيوخ والعلماء بها ما يوحي بمزجه بين الأسلوبين السّردّي والوصفي.

لقد اتّبع البلوي نمطا خاصّا في الكتابة وهو محاولة إحداث النّعم الموسيقي من خلال حسن انتقاء الألفاظ المناسبة ووصفها مع بعضها، فيقول في ترجمة سيرة أبي عبد الله بن عبد السلام أنّه: "البحر المتلاطم الأمواج، والمنهل الذي تروى بعذبه بقاع الوهاد، وتلاع الفجاج، والمجموع الذي نزلت بساحته العلوم نزول الماء الثجاج، قاضي القضاة وإمام الفقهاء النّحاة، وربّ العقل الوافر والحصاة... رجل نشأ في العقّة والصّيانة، وتبوأ ذروة الطّهارة والدّيانة، وصعد من هضبة التقى على أعلى المكانة، فلم تعرف له قط صبوة، ولا حلّت له على غير الطاعة حبوة..." (البلوي، دت، صفحة 176، 177) وهو أسلوب اتّبعه الرحالة لاسيما أثناء ترجمته لسير العلماء، فيضيف إليهم بعض النّعوت الدّالة على التّقّدّم والتّفوّق، مستعينا بالكناية والجاز والسّجع لتحقيق الجانب الأدبي أكثر وقصده من ذلك الإشادة والاعتراف بفضل هؤلاء العلماء.

كما تجلّت أدبية الرحلة أكثر من خلال ولع الرحالة بالشّعْر وروايته ونظمه، لذا سنورد مقطعا من إحدى القصائد التي شهد البلوي لناظمها بالتّفوّق وهو الأديب الجوهري حينما قال: (البلوي، دت، صفحة 283)

سَلامٌ كَنَشَرَ الْوَرْدَ مِنْ مَسْقَطِ النَّدَا	عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ يَا مُنْزِلَ الْهُدَى
وَيَا مَهْبِطَ الْأَمْلَاقِ وَالْوَحْيِ لَمْ تَزَلْ	أُنَيْسًا بِرُورَاءِ الرَّسُولِ مُمَجِّدًا
وَيَا ثُرْبَةَ الْمُخْتَارِ أَفْدِيكَ ثُرْبَةَ	بِنَفْسِي وَإِنْ كَانَتْ أَقْلٌ مِنَ الْفِدَا

وَيَا بَيْتَهُ حَيًّا وَمَثْوَاهُ مَيِّتًا لَكَ الْفَخْرُ فِي خَالِيكَ بَيْتًا وَمَشْهَدًا

وهي أبيات نظمها الأديب الجوهري في مدح الرسول (عليه الصّلاة والسّلام) وُجدت مكتوبة بخطّ مذهب رائق وبديع في سقف المسجد الشّريف، فأعجب بها البلوي وبهاء نقشها وألوانها، فأبى إلا أن يزود متن رحلته بها. وإلى جانب أبيات وقصائد كثيرة أدرجها البلوي في رحلته؛ فإنّ ينبوع الشّعْر لديه لم ينضب بل تفجّر هناك بتلك الأماكن الطّاهرة، فأبان عن احترافه وحذقه، ومن شعره أبيات ارتجلها بالإسكندرية فقال: (البلوي، دت، صفحة 42)

شَكُوْتُ هَوَاهُ إِلَى رُدْفِهِ وَهَلْ يَسْمَعُ الْمَوْجُ شَكْوَى الْغَرِيقِ

وَأَرْحَصْتُ لَوْلُو دَمْعِي بِهِ وَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ يُبَاغِ الْعَقِيقِ

ويضيف قائلا في موضع آخر: (البلوي، دت، صفحة 295)

لِلَّهِ أَيُّ هَوَى يَرَامُهُ حَيْثُ الْقُلُوبُ الْمُسْتَهَامَةُ

لَمْ يَبْقَ قَلْبٌ فِي الْحَمَى إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ زِمَامَهُ

بِاللَّهِ يَا حَادِيَ الْقُلُوبِ بَ إِذَا رَجَعْتَ مَعَ السَّلَامَةِ

فَاخْذَعْ فُؤَادِي عَالَهُ يَرَعَى لِمَنْزِلِهِ دِمَامَهُ

وهي أبيات ارتجلها الرحالة على حسب ما يمرّ به من ظروف وما ينتابه من حال، فهو مرّة شاك ومرّة متشوّق، يحسّ القارئ بتدافع أحاسيسه ولوعة قلبه لفراق تلك الأوطان التي ألفها وكلّه أمل في معاودة زيارتها. لقد تبوّأت رحلة البلوي مكانة أدبية رفيعة بفضل ما ضمّته من موارد معرفيّة متنوّعة، ونصوص نثرية وشعرية بتراجم أصحابها، أجاد الرحالة في عرضها على القارئ بأسلوب مميّز تراوح بين السّرد والوصف، فتمّ للكثير من عظماء عصره قرظها فأبانت عن مقدرته وتفرّد منهجه في النقل والتّوثيق.

2. الموارد المعرفيّة في الرّحلة:

تجود الرّحلات بالكثير من المعارف المختلفة بين ما هو تاريخي وديني، وجغرافي واجتماعي، وثقافي وعلمي وأدبي وغير ذلك، ما يجعل متن الرّحلة متنوّعا وغنيا في مادّته يعين القراء والباحثين في الكشف عن الحقيقة، والمتأمل في رحلة البلوي سيقف لا محالة لدى العديد من المعارف التي أثرى بها رحلته، فأجاد في عرضها منذ انطلاقه من بلده ووصوله إلى مكّة المكرّمة لأداء الفريضة ولقاء العلماء، ثمّ عند عودته راجعا إلى موطنه من جديد، حيث مرّ على الكثير من المدن الإسلاميّة فاهتمّ بالوصف الجغرافي لها، ولمشاهدها المألوفة وأحوالها السياسيّة والاجتماعيّة السائدة ومن هذه المدن نجد على سبيل المثال لا الحصر: بجانة الأندلسيّة، برشانة، تلمسان، تونس، ومنهور، الرملة،

العقبة، مكة، وغيره، من ذلك ما ورد في الرحلة من مرور البلوي على مدينة بجاية التي استقرّ بها شهرا، فراح يصف جغرافيتها وأهمّ ما شدّ انتباهه فيها قائلا: "حتى وصلنا بجاية وهي بلدة قدرها خطر وذكراها في كلّ زمن يطير... يمتدّ أمامها بسيط أخضر مدّ البصر قد أجرى الله فيها مذائب الماء تسقيه... والبساتين ملتقّة الأشجار يانعة الثمار... شيّد فيها البناء، وبُعد لها الصّيت الممدود والثناء، انتظم فيها من الوادي والبحر فلدتان على ذلك النّحر" (البلوي، دت، صفحة 153) فقد أُعجب البلوي ببجاية فانبهرى يصف جمالها بأنهارها وحدائقها وينابيعها التي سلبت لُبّه وتعلّق بها إلى درجة بكائه لفراقها، وذات الأمر كان يفعله مع كلّ مدينة يحلّ بها فيسرد أوصافها ويحدّد تضاريسها، وكأنّ رحلته كادت تتحوّل إلى معجم جغرافي للكثير من المدن والأقاليم.

وبعد الخروج من بجاية عرج الرّحالة إلى مدينة قسنطينة؛ وهي كذلك من أروع المدن منظرا في رأيه، حيث تطرّق فيها للحديث عن الأحوال الاقتصادية هناك باعتبارها ملتقى للعلماء والتّجار فنألّفه يقول: "قسنطينة الهوى... تفخر بجمال المحاسن كلّ الفخر... بها تتوقّر الأرباح وبأعلاها تنبارى الرياح وبشّيّ أقطارها يتلاقى التاجر والفلاح، ويعتزّ الساكن منها في الحصن الأحمى، والموطن الأسمى، والمحلّ الأسنى، والعيش الأهنى، وبمسك له في خزائنه الواسعة من ياقوت القوت ما يفنى الدّهر وهو لا يفنى" (البلوي، دت، صفحة 160) فالأحوال الاقتصادية من جملة المعارف التي يوردها الرّحالة في رحلته، وهنا خصّ هذه المدينة بالحديث عن ثرائها المادّي من خلال أسواقها ومنتوجاتها، يلتقي فيها الفلاحون والتّجار لبيع سلعهم أو تبادلها، وهذا ما ينعكس بالإيجاب على الأوضاع المعيشية للسّكان.

وإلى جانب ما يسرده الرّحالة من تقاسيم البلاد وأحوال معيشة العباد فيها، فإنّه سيتعرّض بالضرورة إلى جانبها الاجتماعي من طبيعة السّكان وأعمالهم وأخلاقهم وعاداتهم، وذلك ما فعله البلوي في كلّ إقليم مرّ به، فمثلا في القاهرة سمع عن بعض المؤرّخين والأعلام أنّ أبرز مهنة امتهنها النّاس كانت السّقاية؛ لكنّها بالمدينة، فقد تمّ إحصاء الجمال الدّاخلة إلى القاهرة بالماء في كلّ يوم فبلغت مائتي ألف جبل، ما عدا البغال والحمير، والسّقائين الذين بالرّقوق، كما أحصى دكاكين السّقائين المعدّة للسّقي فبلغت ستّين ألف دكّان، ما عدا السّقائين الذين بالأكواز والأكواب في الطّريق والأسواق (البلوي، دت، صفحة 218) فلاحظ اكتظاظ المدن وانتشار العمّال وأصحاب المهن والحرف، والأهمّ من ذلك تنوّعها وإسهامها في تعزيز الاستقرار والتعاون في المجتمع.

حطّ البلوي رحاله في مدينة القدس فكان أوّل ما استرعى انتباهه معالمها التاريخية والدّينية والعلمية، كيف لا وهي المدينة المباركة الطّيبة التي وصفها بأوصاف رائقة، ولاسيما مسجدها الشّريف "وهو من أعظم مساجد الدّنيا طوله سبعمائة وثمانون ذراعا وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا... وسواريه أربعمائة وأربع عشرة سارية، وأبوابه خمسون

بابا يطيف به سور سعتة ثلاث خطوات قد أسّس بالحجارة العظيمة، وألواحه الكبار المنحوتة الهائلة... من أبوابه اثنا عشر بابا كلّ باب منها له الوجه المنقش المحسن المرقش، فيها باب مصنّح بالعقيان واللّجين... (البلوي، دت، صفحة 246، 247) إنّ المسجد الأقصى المبارك وقد أبدع الرّحالة في وصف عمرانته وزخارفه وأبوابه وسواريه، فلا يضاهيه في الرّوعة أي مسجد ولا تنافسه في الصّنع الزخرفية أيّ عمارة أخرى، فمنها ما هو مطلي بالذهب ويحمل نقوشا بها معلومات تاريخية وأدبية مطبوعة تخلّد ذكر من أسهم في البناء والترميم والصّيانة على مرّ العهود.

بالإضافة إلى ما تقدّم ضمّت الرحلة في الجانب الأكبر منها سائر المعارف في المجال العلمي والتعليمي، فقد حرص الرّحالة على تزويد كتاباته بسير العلماء ومآثرهم، وحتى مجالسهم العلمية والأدبية ومختلف المعاهد التي تمّ له لقاءهم فيها، فلم يترك مدينة من المدن إلّا وذكر كبار شيوخها وعلمائها في نوع من التشريف لهؤلاء والاعتراف بصنيعهم، فيقول "ومن أعظمهم رئاسة وأكرمهم سيادة وسياسة الشيخ جمال الدّين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف الخزجي المصري السعدي العبادي ذو المجادة والأصالة والسيادة الماثورة والجزالة... سار سيرة الصلحاء الأخيار، وورث الأعمال البرّة من أسلافه، ونقيل ذروة العزّ المكينة وأشير إليه بالسّمات والعدالة والسّكينة... عارض النعماء وفاضل العلماء وكامل السؤدد والعلا، عكف على اسماع الحديث وإقامة السنّة... لقي صدور الأكابر فوعي صدره علما كبيرا، وسقي زلال الحكمة فأحيا الله به أنعاما وأناسي كثيرة" (البلوي، دت، صفحة 293، 294) فقد عكف البلوي على سرد سيرة هذا العالم الجليل بأوصاف سديدة خلّدت ذكره، كما أنّه صحبه ونال من خلاصة علمه، لاسيما علم الحديث حينما حدّثه وأجازه فيما يرويه إجازة تامّة، ولم يكتف البلوي بشيوخ مكّة والمدينة فحسب، وإنّما ترجم تقريبا لكلّ العلماء الذين لقيهم من أمثال: زين الدّين أبو البركات، عبد الرّحيم بن بدر الدّين الشّافعي، وعلاء الدّين أبو الحسن علي بن أيوب بن منصور المقدسي، وأبو عبد الله محمد بن جعفر وغيرهم كثير، ولقد خصّ البلوي رحلته بالإشارة إلى عدّة كتب وشروح وإجازات وقصائد وتخريجات، جمعها المحقّق لرحلته في شكل فهرس خاصة بالوثائق العلمية، ما ينمّ عن موسوعية الرّحالة وإلمامه بكتب علماء عصره.

الخاتمة:

بعد هذه الدّراسة التي تمثّلت في التعرّف على مصنّف فريد من المصنّفات الرحلية وهو رحلة "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق" لخالد بن عيسى البلوي الذي عُدّ من أعظم المتون الرحلية المغربية والأندلسية ذو الطّابع العلمي والتعليمي، تمكّن فيه الرحالة من تحقيق نوع من التناسب بين سرد شتّى الموارد المعرفيّة للرحلة ووصفها تاريخيا، وجغرافيا، واجتماعيا وعلميا، وبين إتخافنا بطريقته الفنّيّة والجمالية في عرض مضمونها الغني فتجلّت قيمتها الأدبية أكثر، فإنّنا توصلنا إلى مجموعة من النتائج هي كالآتي:

- يعدّ أدب الرحلة من الأجناس الأدبية الأصيلة، فهو النصّ المفتوح بفضل ما يوجد به من مكوّنات ثقافية وعلمية وفنيّة ومعرفية متنوّعة، تتداخل لتكوّن حقولا تعبيرية شتى وتمتدّ لتؤثّر في القارئ وتنقّفه.
- تباينت مقاصد الرّحلات وتعدّدت بين الدّينيّة والعلمية، السياسية والاقتصادية، الصحيّة والسياحية، لتشكّل وهي مجتمعة سلوكا إنسانيا يسهم في تحقيق منافع كثيرة في حياة الأفراد والجماعات، دينيا ودنيويا، ما من شأنه تعزيز الانتماء بالذّات والاطّلاع على سائر الأمم.
- لقد عُرف عن البلوي بأنّه فقيه جليل، وقاضٍ عادل، وكاتب مقتدر، وأديب متفتّن، وكلّ هذه الصّفات والمناصب أهّلته لأن يتبوّء مكانة علمية هامة بين العلماء المسلمين، ولاسيما الأندلسيّين، فيواصل النهل منهم أينما حلّ وارتحل.
- تميّزت رحلة تاج المفرق بصبغتها العلمية؛ فبالرّغم من أنّ البلوي قام بها لغرض ديني وهو أداء مناسك الحج، فقد قرّنها بقاء العلماء والشّيوخ والأدباء، والارتواء من معينهم ونيل الإجازات عنهم، فتمّ له ذلك وفق منهج خاصّ تمايز به عن سائر الرّحّالين الآخرين.
- صنّفت رحلة البلوي من أرقى الرّحلات الأدبية بين مثيلاتها المغربية والأندلسية؛ فقد أجاد صاحبها في توثيق معارفه المتنوّعة بما بأساليب أدبية وفنيّة بليغة ورائقة، جمعت بين النثر والشعر، وبين السرد والوصف وأسلوب التراجم والسّير.
- اكتنرت رحلة تاج المفرق إلى جانب قيمتها الأدبية معارفا كثيرة ومتنوّعة تاريخية، ودينية، وجغرافية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وعلمية، وأدبية سردها البلوي بكلّ دقّة وموضوعية ذهابا وإيابا، ولكنّه خصّ الجانب العلمي والعلماء فيها بمساحة هائلة ومنزلة رفيعة.
- وقبل أن ننهي هذا الموضوع كان لا بدّ أن نوّكد على تشعّب جنس أدب الرّحلة؛ وما له من فائدة عظيمة في حياة الأجيال إن هي أخذته بعين الاعتبار، وخاضت غماره للاستفادة من تجارب الرّحّالين في الحياة المعاصرة، لذلك ينصبّ اقتراحنا حول ضرورة السّعي لإثراء أدب الرّحلة، لاسيما الرّحلات الأدبية القديمة والغوص في ثناياها واستخراج دوائنها ودررها خاصّة الرّحلات العلمية، وما تجود به من سير للعلماء والأدباء وعظماء الأُمّة الفاعلين في مجتمعاتهم، من أجل المعرفة النظرية والتطبيقية للاستفادة منها في عصرنا الحديث.

قائمة المراجع:

- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. (دت). إحياء علوم الدين (دط). القاهرة: مكتبة الدعوة الإسلامية.
- بطرس البستاني. (دت). دائرة المعارف (دط). طهران: مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان.
- جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأفريقي ابن منظور. (دت). لسان العرب (دط). القاهرة: دار المعارف للنشر.
- جميلة روباش. (2015). أدب الرحلة في المغرب العربي. جامعة بسكرة: قسم اللغة والأدب العربي.
- حسني محمود حسين. (1983). أدب الرحلة عند العرب (ط2). بيروت: دار الأندلس للنشر.
- حسين محمد فهميم. (1978). أدب الرحلات (دط). القاهرة: عالم المعرفة للنشر.
- خالد بن عيسى البلوي. (دت). تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (دط). المغرب: مطبعة فضالة.
- شعيب حليفي. (2006). الرحلة في الأدب العربي (ط1). مصر: رؤية للنشر والتوزيع.
- شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ. (دت). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (دط). القاهرة: دار المعارف للنشر.
- شوقي ضيف. (دت). الرحلات (ط4). القاهرة: دار المعارف للنشر.
- فؤاد قنديل. (2002). أدب الرحلة في التراث العربي (ط2). القاهرة: مكتبة الدار العربية للكتب.
- لسان الدين بن الخطيب. (2009). الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه من شعراء المائة الثامنة (دط). الجزائر: دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. (2005). القاموس المحيط (ط8). بيروت: مؤسسة الرسالة للنشر.
- محمد البشير الإبراهيمي. (دت). عيون البصائر (دط). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- ناصر عبد الرزاق المواقفي. (1995). أدب الرحلات عند العرب حتى نهاية القرن 4هـ (ط1). القاهرة: دار النشر للجامعات المعربة.
- نوال الشوابكة. (2001). أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر (ط1). عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع.